"في الخفايا الاستعمارية"

مقابلة أجرتها آن لورا ستولر مع

سلوى لوست بولبينا

ترجمة ولاء سمارة ونيفين شحاتة وإبراهيم عبد الباقي

بولبينا: يوجد لدينا دوما اهتمام شخصي للاستثمار في حقول بحثية معينة حتى وإن كنا نخطئ بتقليل اهتمامنا بشكل عام بالتجارب الشخصية أو بـ"الهوية" وهذا أسوأ، كيف يمكنك الحديث عن الدافع الذي لطالما دفعك ولا يزال يدفعك لاختيار حقل الدراسات الاستعمارية التي بدأتها في أماكن بعيدة في أقاصي العالم؟

آن لورا ستولر: "لقد درست علم الأعراق البشرية، ثم عشقت التأريخ الذي تخصصت فيه على مقاعد الدراسة وفي أبحاثي. وقد كانت سياسة المعرفة، حتى قبل قراءتي كتابات "فوكو"، نقطة انطلاقي في البحث. كنت دائماً متحمسة لفهم الطريقة التي "تسير" بها السلطة بشكل أفضل، خاصة هناك حيث لا نراها! لقد بدأت أبحاثي عندما كانت فيتنام مهمة جداً. الماركسية بالنسبة لي كانت مصدرا للتعلم، كان علي فهم العلاقة بين الإمبريالية والرأسمالية والهيمنة الطبقية، ومن هنا بدأت العمل على مشاريع سوماترا الزراعية. كان الجاويون عالقين بين نمط الفلاحين ونمط العمال الحديثين، وقد كان من الخطأ ولو جزئيا القول أنه كان هناك نمطين من أنماط الإنتاج. لقد كنت مأخوذة بحالتهم، وللحصول على مزيد من الأراضي، كان عليهم أن يبقوا فلاحين مجاورين للمزارع الكبيرة بحيث يكونوا وثيقي الارتباط بهذه المزارع. كانت فكرة التصنيف مهمة جدا بالنسبة لي، ولم تكن على نحو جيد بنظري. نميز بين التصنيفين الرسمي والفعلي، فالأول لا يغير علاقات العمل بينما يهدف الثاني إلى تغيير هذه العلاقة، وقد كان تغيير الحياة أو استبدالها بحياة أخرى أمراً جوهريا. ضمني "موريس جولدبير" إلى فريقه، حيث كنت بدأت، في هذا الإطار، التفكير في مفهوم التصنيف وقد نشر لي جولدبير مقالا ضمن مؤلف حول الانتقال[1]. الحقيقة أنني كنت دائما أرى أن هناك علاقة عضوية بين ماركس وفوكو إذ حاول كلاهما، كلا من جانبه، فهم ما الذي تخفيه السلطة وعدم المساواة التي تدفنها بعمق لدرجة أننا لا نراها.

لقد بدأت رحلة إثنوغرافية وتاريخية وتحليلية وسياسية في نيويورك، ثم واصلتها باتجاه جاوة وسوماترا مع فترات إقامة طويلة وقصيرة في أرشيفات المستعمرات في هولندا، ومع رحلات عديدة ذهابا وإيابا إلى فرنسا. جاء هذا العمل وسط العديد من المشاكل المستمرة المرتبطة بتواجدي في فرنسا، كان البحث منتعشا بالعلاقة مع الناس الذين ساعدوني، بالأرشيفات التي

قلبت كياني رأسا على عقب، بالروايات، بكتيبات الإرشادات الاستعمارية وكتيبات الإرشادات الموجهة للنساء البيضاوات اللواتي يذهبن للمرة الأولى إلى الهند الصينية والسنغال وساحل العاج، والتي وجدتها في المكتبة الوطنية مع صفحات لم يتم تمزيقها أبداً. لكن هذا العمل كان محكوما بالغياب القوي للماضي الاستعماري وبحضوره في آن واحد، فقد كان ماضٍ مخبئا ومنسيا" ثم "مكتشفا" فجأة، ومن ثم أصبح ثانيةً غامضا ومهملا، وهو ماضٍ لطالما أرق فرنسا في الماضي ولا يزال يؤرقها اليوم.

لقد بدأت في سنوات السبعينيات أبحاثي التاريخية حول قضايا السلوك الجنسي باعتبارها نقطة قوة استعمارية وأداة لتشكيل الفئات العرقية في جزر الهند الشرقية الهولندية في القرنين التاسع عشر والعشرين، بالإضافة إلى أبحاث إثنوغرافية في إندونيسيا. ولكن من المؤكد أن وجودي في فرنسا في كل من باريس وإيكس ومارسيليا، بالإضافة إلى إقامتي كل عام في إحدى قرى مرتفعات "ليبرون" التي ظللت جاهلة لفترة طويلة أنها كانت قريبة من القرية التي تم فيها إيواء عائلات "الحركيين" الجزائريين، من المؤكد أن هذا الأمر هو الذي لطالما أعطاني إحساسا بحيوية وعمق وتحول هذا الماضي الاستعماري، وهو الذي نراه قريباً جداً وبعيداً في آن واحد. من الأفضل أن ننظر إلى هذا التاريخ الاستعماري على أنه تاريخ الحاضر لا على أنه تاريخ لزمن مضى، فهو يترك لدي أكثر من آثار خافتة، بل آثار عميقة لطالما أثّرت فيّ. وأكثر من أي وقت مضى، أصادف مفاهيم قد أتفق معها وقد أرفضها، فضلا عن المفاهيم التي أحاول صياغتها وإعادة ربطها حين أكون في حالة من الاندفاع والانفعال بسبب المواضيع والمسائل الاجتماعية والسياسية التي تشغلنا حاليا. ففي فرنسا وهولندا والولايات المتحدة واليابان (بما يتعلق بنساء المتعة) وأستراليا وفلسطين وإسرائيل، وسنكتفي بهذه الأمثلة فقط، يمكننا رسم الخط الرابط للعلاقة بين التاريخ الاستعماري والمعارف الحميمة والقوى العنصرية وهي قصص غالباً ما تمّ نفيها وحتى سحقها.

بولبينا: كيف تتصورين الالتزام بقضية ما في الأبحاث لاسيما لدى إجراء التحليلات؟ في الحقيقة، إن الاهتمام بالأرشيفات التي تتعلق بالنساء أو بالسلوك الجنسي أو بتنفيذ تجربة علمية على موضوع أو حقل جديد، وهنا تخطر ببالي العلاقة الإسرائيلية الفلسطينية (بالاتجاهين)، لا يشكل فقط خطوط تسرب العقول وإنما أيضا تسرب المناصب السياسية، سواء أكان ذلك في الماضي أو في الحاضر.

ستولر: عام 1988، كنت على وشك الانتهاء من الفصل الأخير من كتاب "جسد الإمبراطورية *La Chair de l'empire* " في مدينة إيكس (حيث مكثت لمدة سنة)، من أجل إكمال كتاب حول الأرشيفات الاستعمارية وإثنوغرافية الأرشيفات والأرشيفات الاستعمارية كونها تكنولوجيا السلطة. إنما كان من الصعب أن أبقى منغلقة على نفسي في مكتبي، كانت أخبار لوبان والجبهة الوطنية تملأ الصحف ويُصدح بها في المظاهرات وفي مدرسة ابنتي المجاورة، والشوارع بما فيها شارعي كانت مغطاة بإعلاناتهم.

تركت اثنتين من المخطوطات جانبا وقررت أن اتبع مسار الجبهة الوطنية إلى مدينة "فيترول"[2] حيث أصبحت زوجة "برونو ميجريت" (وكانت الشخصية الثانية في الجبهة الوطنية في ذلك الوقت) رئيسة البلدية. أتذكر جيدا عدم الثقة التي رأيتها في عيون صديقاتي في الجنوب اللواتي أخبرنني، بلطف بالغ، أنني كنت أضيع وقتي. كان "لوبان" عديم الفائدة، كان لا شيء وعديم التأثير كما أن خطابه حول "الأمن" و"الأفضلية القومية" لم يكن فرنسيا حقيقةً. هذا الخطاب لم يكن مسموعا لأنه لم يكن متوقعا لا من قبل البرجوازية الفرنسية ولا حتى من أغلبية الفرنسيين "الأصليين". ولكني لم أكن مقتنعة أو متفقة مع ذلك. في تلك السنة، أمضيت الكثير من الوقت مع أمهات من فيترول كن في الجبهة الوطنية، نساء اشتراكيات ونساء في كل من حزب الاتحاد من أجل الديمقراطية الفرنسية وحزب التجمع من أجل الجمهورية، ومعلمات وتاجرات، حيث كنت مصدومة من حقيقة أن خطاب النساء في الجبهة الوطنية لم يكن غريبا جدا ومتطرفا أو مبالغا فيه لهذا الحد. لقد بدا لي خطابهم عن فرنسا للفرنسيين والأمن ومشاكل الشباب العرب في المدرسة ذا صدى مألوف وقوي، وغير بعيد عن الخطاب الاستعماري حول التمييز على أساس العرق في أرشيفات أقاليم ما وراء البحار في مدينة "إكس" المجاورة.

إذا ما تخيلنا أنه قد أُعيدت كتابة دراسة "بيير بوردو الشهيرة" وعنوانها " *La Distinction* " لكسر التمييز العنصري بنفس العناية الفائقة التي وصف فيها الفروقات الطبقية بين البرجوازية الصغيرة والمتوسطة والكبيرة، فإنني أعتقد أننا نستطيع أن نرى علاقات الأعراق المُقحمَة/المتداخِلة في كل مكان؛ فالقصص الاستعمارية حية في إدراكنا، في الأمور التي ننفر منها وتلك التي نحبها، وفي حاضرنا. لابد لنا من فعل ذلك، ليس لنصحح الماضي الاستعماري ولكن للتعرف بشكل أفضل على ترسب تأثيراتها، وعلى قوة اللون الأبيض في الوقت الحاضر ولتحديد أوجه عدم المساواة الصريحة والخفية، الملموسة وغير الملموسة، وأوجه العنف اللين والقوي/البطيء والمفاجئ الذي يلقي بثقله على المستقبل.

المعرفة بالنسبة لي قضية سياسية. كنت قد استنتجت (بفضل علماء الانثروبولوجيا الذين سبقوني مثل طلال أسعد، و"كاثلين غوف") ومن دون أن أقرأ كتابات "فوكو" أن تشكيل هذا النظام هو من تصميم الاستعمار، وكان من الواجب ذكر ذلك. كان بعض المعارضين يتساءلون عن التنمية والتخلف، التنمية كانت فعالة بسبب تأثير نظام عالمي وشامل، ولذا كان "والسترين"[3] ذا أهمية كبيرة. لقد درست هذه القضايا ودرست الثورة الخضراء في جاوا لأنها كانت جزءا من بيئتي الماركسية على الرغم من أنها لم تكن ضمن المسار المعتاد للاثنولوجيا. عام 1974، أثناء إعدادي لرسالة الدكتوراه في جامعة كولومبيا، أمضيت ساعات في قراءة كتاب المؤلفين "باليبار" و"التوسير" وعنوانه *Lire Le Capital* ، وقد كان هذا الكتاب مهما جدا بالنسبة لي. قرأت أيضا كتابات "لينين" و"روزا لوكسمبرغ" من أجل فهم الامبريالية، وقد كان هذا العمل مرتبطا مع الحركة النسوية ومع الجدال حول إعادة إنتاج العمل، كنا نسعى دائما لإظهار أنه لا يمكن أن تتم إعادة الإنتاج دون عمل النساء والأطفال. العمل المنزلي ضروري من أجل إعادة الإنتاج وهو جزء لا يتجزأ من الرأسمالية. أول مقال مهم نشرته[2] كان في مجلة ***Signs*** عام 1977 بدأ بجملة: "الطبقة تتفوق من ناحية تحليلية على النوع ومن هنا نفهم عدم المساواة في جاوا"، حيث أكدت جميع المنظمات غير الحكومية أن لا بد من دعم المرأة (ولكن الاختلافات الطبقية كانت كبيرة و"مساعدة" البنك الدولي والمؤسسة الدولية للتنمية زادت من خطورة تعرض سكان الأرياف لفقدان أراضيهم، وخاصة النساء).

2

بولبينا: نشر مؤخرا احد كتبك الرئيسية باللغة الفرنسية بعنوان: *La Chair de l'empire* (*Carnal Knowledge and Imperial Power*, 2002). يتناول الكتاب السلوك الجنسي باعتباره بعدا أساسيا للممارسات الامبريالية ويقدم وجهة نظر مختلفة، حيث يبدو السلوك الجنسي ميزة ومحكاً لتقييم السياسة، فهو يعطي الفرصة لرؤية تداول السلطة بين "العام" و"الخاص" ولمراقبة كيفية التلاعب بالتمييز وإعادة التلاعب به وفقا للسياقات، فالسلوك الجنسي في السياسة الامبريالية محدَّد بشكل عنصري؛ فهو مثل الرسالة المختلسة للكاتب "إدغار آلان بو" التي كانت أمام العيون وغير مرئية ثم أصبحت فيما بعد في متناول الجميع.

آن لورا ستولر: لتحديد أهمية الكتاب كما كانت وكما آمل أن تبقى، أي الكتاب حافزا ومحرضا، أدعوا إلى إعادة التفكير في ماهية السياسة الاستعمارية وفي ما يعتبر "سياسة"، أي في مظاهر القوة الاستعمارية والعلاقة بين الحياة الحميمية والحكم. ولكن لماذا في حين أن الأرشيفات الاستعمارية تتعامل بوسواس مع كل من الجنس والخوف من فقدان الرجولة البيضاء والهوية البيضاء في المستعمرات والقلق أمام العلاقات بين نساء الشعوب الأصلية والرجال البيض والخطر السياسي الذي يشكله العدد الكبير من الأطفال المختلطين (الذين ولدوا من آباء بيض وأمهات محليات) اللقطاء، باختصار في حين أنها تتحدث في الغالب عن العلاقات الحميمية لبسط الحكم ليس فقط على المستعمَرين ولكن أيضا على المستعمِرين، لماذا لم يكن لهذا أي اهتمام تقريبا إلى اليوم حتى لدى المؤرخين الأكثر احتراما؟ وعندما تحدثوا عن ذلك، ونادرا ما فعلوا، لماذا لم يؤكدوا أن التمييز العنصري الاستعماري بدأ فعلا مع دخول النساء البيضاوات إلى المستعمرات؟

أود أن اقتبس عبارة بدأت بها الكتاب، هذه العبارة تعبّر تماما عن الحالة الاستعمارية التي تهمني. عام 1929، كتب "جورج هاردي" وهو مهندس كبير للتعليم الاستعماري ومدير المدرسة الاستعمارية المشهورة كتب جملة بقيت محفورة في ذاكرتي وتتحدث بطريقة مميزة عن تداخل العرق والخوف والنساء البيضاوات والسلوك الجنسي في الأفكار والممارسات الاستعمارية. بالنسبة له فإن "الرجل يبقى رجلا حتى يقع تحت أعين امرأة من نفس عرقه"، حيث يحدث كل هذا تقريبا "الخوف من أن يضيّع الرجال البيض الصفات المطلوبة ليبقوا "رجالا" إذا لم يتم مراقبتهم بواسطة نساء بيضاوات. هؤلاء مثل الحارسات للعرق الأبيض، فهن يساعدن الرجال البيض الضعفاء جدا في الحفاظ على أنفسهم".

جملة هاردي هذه مهمة نظرا لما تقوله ونظرا لما تخفيه أيضا، فقد كانت تحذيرا يعبر عن قلق كان منتشرا بشكل واسع.

إن فكرة أن تبقى فعلا "أوروبيا" في مستعمرة لم تكن أبدا مؤكدة بسبب المخاطر التي كانت في كل مكان وخاصة في بيوتهم. حسب كتيبات الإرشادات الاستعمارية الخاصة بالمهام المنزلية في سنوات العشرينيات والثلاثينيات وحسب ما يشهد به اليوم الجاويون والجاويات الذين عملوا خدما وبستانيين ومربيين في منازل البيض، كانت العلاقات الاستعمارية ضمن المجال المنزلي (وهي علاقات متوترة ولا يتم حلها بسهولة في الغالب) تتسم بالحميمية المضطربة وكانت في الوقت نفسه غير مرغوبة وخطيرة وقريبة جدا ومرغوبة.

يجب أن أقول شيئا بوضوح وهو أن السلوك الجنسي ليس مجازا بسيطا للتعبير عن العلاقات الاستعمارية بل هو المكان نفسه الذي تم فيه التلاعب بحقيقة السلطة. لقد تجنبت وتجاهلت سياسة المعرفة في مجال التاريخ الاستعماري قبل دراسات سنوات الثلاثينيات الماضية (مع بعض الاستثناءات مثل "فرانز فانون") هذا الأساس المهم في لعبة السلطة وأجهزة إدارة المستعمرات.

ولكن كان هناك شي أكثر أهمية صدمني أيضا في ذلك الوقت وهو معرفة من يضاجع من أو حتى معرفة التسمية التي تطلق على المعاشرة من دون زواج أي "الشر الذي لا بد منه" (لتمييزه عن "الأسوأ" أي الشذوذ الجنسي للذكور)، ومسألة الأطفال المختلطين (الذين ولدوا من آباء بيض وأمهات محليات) اللقطاء وغير المعترف بهم من قبل البيض وهم آباؤهم، وكتيبات الإرشادات المخصصة لحماية "صحة" البيض، والملابس شديدة البياض التي يرتديها المستعمرون، وقد كان كل ذلك جزءا من منظومة يومية واسعة النطاق أنتجت نظام حقيقةٍ مبنيا على تقاطع سيطرة العلاقات الجنسية والتصنيفات العرقية (أي التسلسل الهرمي العنصري)، وهي منظومة وضعت من أجل الحفاظ على "أنا" بيضاء وحمايتها وأحيانا من أجل خلقها، أي من أجل التأكيد على شيء لم يكن أبدا من الممكن التأكيد عليه. فمن ينتمي إلى عرق ما ومن ينتمي إلى غيره، ووفقا لأي معايير، ومن سيقوم بالحكم على ذلك؟

بوليينا: ألّفت كتابا "مكملا بل مُزيحاً إن صح التعبير لكتاب "فوكو" بعنوان: "العِرق وتعليم الرغبة– تاريخ السلوك الجنسي لفوكو والنظام الاستعماري للأشياء"، 1995. ففوكو بالنسبة لكِ، على ما هو عليه وكما وصف نفسه، مصدر إلهام، فهو صاحب التجارب وليس صاحب النظرية. وهو أيضاً منافس لا يجب معارضته بل يمكن في الأساس معارضة كل ما لم يفكر فيه أو ينطق به وكل ما لم يحققه في الأساس. فهو لم يشر صراحة إلى فكرة الارتباط بين العنصرية والسلوك الجنسي، وهي فكرة أساسية بالنسبة لكِ.

أن لورا ستولر: في عام 1979 قدمت إلى أمستردام لتحضير رسالة الماجستير ولكن رفيقي "لورانس هيرشفيلد" تلقى دعوة من السيد "ليفي شتراوس" في باريس للعمل حول موضوع [قبائل] "الباتاك" في سوماترا وفضلت أنا العمل في الأرشيفات الهولندية وكنا نتقابل في باريس بفضل منحة دراسية حصل عليها كل منا. أما منحته فمن "ليفي شتراوس" وأما منحتي فمن "موريس جودولي" الذي كان يستضيفني ضمن فريق عمله حول المرحلة الانتقالية. وكانت أطروحتي تدور حول الشركات الكبرى متعددة الجنسيات ومزارع المطاط وزيت النخيل في سومارا التي قضيت فيها ما يقرب العامين. وكنت أعود شهريا إلى الأرشيفات الهولندية في لاهاي وأمستردام وأقوم بتحليل العلاقات (التي قد تكون أحياناً متوترة أو شديدة الهدوء أو عنيفة) ما بين المهاجرين الجاويين في المزارع ونمو الشركات الكبرى من جهة والعرق كونه العنصر الأساسي في إدارة العاملين الجاويين من جهة أخرى. وفي بداية بحثي صدمتني مسألة منع زواج العمال (حتى أن زواج الشباب من "الإداريين البيض" كان موضوعا تحت المراقبة الشديدة) كما صدمني عمل السيدات الجاويات وتقاضيهن نصف ما يتقاضى الرجال مما دفعهن إلى العمل لدى المستعمرين (ذوي البشرة البيضاء) خادمات في البيوت وصولاً إلى الدعارة مع العمال الجاويين. كل هذا لا يحدث مصادفة ولكنه ناتج عن السياسة التي تظهر بوضوح في الأرشيفات الاستعمارية. وعلى الرغم من سهولة توثيق هذا الأمر إلا أن مؤرخي هذه المنطقة في الأغلب لم يعترفوا به ولم يناقشوه على الرغم من أن المعروف عنهم نجاحهم الشهير في التوثيق.
وقد سمح وجود هؤلاء الخدم في منازل المستعمرين (البيض) بشعورهم "بالراحة" وأنهم يعيشون حياة الأرستقراطيين، وهي الحياة التي لا يجدونها في عواصم بلادهم. لكن يظل الخطر موجوداً في قلب هذه المنازل. كانت تفاصيل الحياة من أغاني وأحضان ومشاعر تنتقل عبر هؤلاء الخدم. وكان الأوروبيون في حاجة إلى كل هذه المشاعر ولكن في نفس الوقت ظل الخوف الدائم

موجوداً. لهذا السبب كانت المحظورات كثيرة مثل وجوب عدم ترك أطفال البيض يلعبون مع الأطفال الملونين ذوي الأقدام الحافية وغير ذلك. كما أن كتيبات الإرشادات العامة للصحة كانت كتيبات تحذير من الأخطار. ففي جاوا كانوا يرغبون بتعيين موظفين يستطيعون فهم العادات الجاوية ولكن دون الاقتراب من أهل البلد، وبعد خمس سنوات أو عشر يقضونها في المستعمرة كان لابد عليهم من العودة للعاصمة. ولكن لماذا لم يتم استغلال الملونين في شغل هذه الوظائف؟ لأن المعرفة كان لابد أن تنقل عبر أوروبا للاحتفاظ بالهوية البيضاء.

وبما إنني من نيويورك وفي الـ78من العمر، فقد كنت مبهورة بالحركة النسائية وكذلك بماركس وأخيراً بفوكو. ففوكو له أهمية خاصة عندي. فهو الذي أرشدني إلى المسارات التي انتهجتها في حياتي حتى لو لم يعمل هو شخصياً بها. أنا لا أزال أتساءل لماذا السلوك الجنسي كما قال عنه فوكو "نقطة عبور عميقة إلى حد ما بالنسبة لعلاقات القوة" ويحظى بكبرى الأدوات فهو "نقطة ارتكاز وتتوقف عليه العديد من الاستراتيجيات المتنوعة". ولكن بالنسبة لفوكو أيضاً "فإن السلوك الجنسي في الأصل وتاريخياً هو علاقة بورجوازية". وفي رأيي أنه كان مصيباً ومخطأ في نفس الوقت. فأنا كنت متفقة مع الاقتراح الأول حتى وإن كان يقلقني مصطلح "الأدوات" ولكن كان عندي شكوك أكثر حول الاقتراح الثاني. فقد حصر فوكو أبحاثه وتحليلاته في الأرشيفات الأوروبية فقط دون أن يلاحظ كيف أن السلوك الجنسي والعرق كانا داخل منظومات الإدارة الاستعمارية وكيف أن الجنس في العاصمة لم يكن بمعزل عن الجنس والعرق في المستعمرات.

وكما كان الحال بالنسبة لي وكما سيظل، فإن فوكو نفسه هو الذي وجهني إلى احتمالية تفسير مختلف لعلم الأنساب وإلى كتابة مختلفة. فمن خلال مسار عمله هو شخصياً ومن خلال كتبه وأعماله استطعت أن أسير على النهج وأمدد المسار الخاص بي. فبقراءتي لكتاب "إرادة المعرفة" وجدت أنه قد تناول مسألة العرق (بشكل متناثر بعض الشيء) ولكن في المضمون كان يتبع نفس توجهي وفي نفس الوقت الذي أنهى فيه فوكو الجزء الأول من كتابه "تاريخ السلوك الجنسي" عام 1976 بدأ في إلقاء مجموعة محاضرات تحت مسمى "وجوب الدفاع عن المجتمع". أما بالنسبة لي فقد توقفت في التأليف عند كتاب "جسد الإمبراطورية" وبدأت متابعة هذه العلاقة بين "إرادة المعرفة" والمحاضرات وذلك لتأليف كتاب "العرق وتعليم الرغبة" والذي قمت فيه بتطوير فكرة أن الجنس البورجوازي في أوروبا كوّن من علاقته مع العرق، وهي فكرة اقترحها فوكو في كتابه "إرادة المعرفة" دون أن يتعمق فيها. وقد أدرجت هذا الأمر في قلب الفصل السادس من كتاب "جسد الإمبراطورية". وبالرغم من أن فوكو قد فكر كثيراً خلال هذه المحاضرات حول "نشأة عنصرية الدولة" وعلى الرغم من كل الضجيج الثقافي الذي أثير حول هذه المحاضرات (نشرت المحاضرة الأولى) من مقالات وتقارير وندوات، فعلى الرغم من كل هذا لم يتكلم شخص واحد في فرنسا عن هذا ولم يعلق أي شخص عن إثارة فوكو لمسألة العرق وتاريخه وقضايا الأعراق والعنصرية خلال هذه المحاضرات.

باختصار فإن فكرتي السلوك الجنسي والعرق قد اختلطتا عند الإدارة الاستعمارية وهذا ليس لأن السلوك الجنسي كان نقطة مرور السلطة ولكن لأنه كان أيضاً مرتبطاً دائماً بمشاعر خطيرة وإنسانية. هذه المشاعر التي طالما كانت مرفوضة وغير مرحب بها بهدف المحافظة على العرق الأبيض. ويتضح هذا جليا فيما يتعلق بالأطفال. فللمحافظة على الهوية البيضاء طالما تساءل القادة عن كيفية التأكد من أن الطفل الذي ولد أبيض سيظل أبيض "كما ينبغي" وسيظل مرتبطاً بالمشاعر الأوروبية عندما يصبح شاباً؟ وتحديداً لطالما تساءلوا عما إذا كان الطفل الأبيض، الذي ولد في المستعمرات وتعلق لمدة عامين بالروائح المحلية وكان ينام على الأغاني الجاوية ويجري حافي القدمين ويظل بين ذراعي مربيته الجاوية مثله مثل أي طفل جاوي، سيصبح أوروبياً عندما يكبر؟

هنا يجب توضيح المسألة التالية: فلست أنا الباحثة النسائية التي اختارت وسعت وراء هذه المواضيع واقترحت وطرحت هذه الأسئلة ولكن الذين طرحوها هم المحامون والأطباء وكذلك وزراء المستعمرات الذين أقلقتهم هذه المخاوف. فهم الذين رأوا أن سن المدرسة الإلزامية كانت سناً متأخرةً لإنشاء الترابط (العاطفي) اللازم ليصبح الطفل (أبيض) وهم الذين رأوا أنه حتى سن روضة الأطفال كان متأخراً جداً. وهم أيضاً الذين ألزموا الموظفين البيض بإرسال أطفالهم إلى العاصمة ليلتحقوا بالتعليم (لمدة عشر سنوات أحياناً) فعند الفرنسيين كما عند الهولنديين والانجليز هذه "الروابط الخفية" هي التي تشكل منا ما نحن عليه الآن.
ولم يكن الأطفال البيض هم مصدر القلق الإداري الوحيد. بل كان هناك قلق سياسي دائم من الاختلاط، فقد كانت الدولة المستعمرة تنظر بعين القلق إلى موضوع الأطفال المختلطين (الذين ولدوا من آباء بيض وأمهات محليات)، الأطفال الذين رحل عنهم آباؤهم وما سيؤول عليه حالهم عندما يكبرون وما هو شعورهم تجاه هؤلاء الآباء وهل سيتحولون إلى "متمردين"؟ وفي هذا الشأن تكلم كثير من الموظفين الهولنديين عن "الأوروبيين المصطنعين" وبالمثل كان لدى الموظفين الفرنسيين في الهند الصينية التخوف نفسه من "الاعتراف المزور" بأطفال مختلطين على أنهم من (البيض) فقط بسبب لون بشرتهم الفاتح. في كل مكان كان هناك تخوف من التزوير "القذر" لأشخاص لا ينتمون إلى العرق الأبيض وليس لديهم الأصل الهولندي "الإشت" وكما يقول الفرنسيون "ليسوا فرنسيين حقيقيين".

بولبينا : في السياق النظري والفكري للولايات المتحدة الأمريكية التي تحاول أن تعيد تأهيل المستعمَرين وأن تتبنى وجهة نطرهم بدلا من وجهة نطر المستعمِرين، أجدك تظلين مهتمة بالأوروبيين أو على الأقل إذا لم تكوني مهتمة بالأوروبيين أنفسهم ففي كل الأحوال تظلين مهتمة بالإجراءات التي تنشأ وتحافظ على الحدود غير الملموسة والتي يسهل اختراقها بين "البعض" و"البعض الآخر".

أن لورا ستولر: في عام 1977 لم يكن منتشرا عمل دراسات عن الأوروبيين بين الباحثين في التاريخ في الوسط الجامعي اليساري الذي كنت أعيش فيه. وبالنسبة لي فقد كنت أتعرض أحياناً للنقد الشديد وأحياناً أخرى للاحتفاء. لكني في كل الأحوال كنت أكمل ما بدأته. وقد سُئِلت قبل ذلك "لماذا لا تقومين بعمل دراسات عن الخاضعين للاستعمار؟" "لماذا لا تهتمين بمقاومتهم للاستعمار؟" "لماذا البيض؟" من ناحيتي كان الأمر واضحاً، إذ لا يمكن لنا فهم الاستعباد أي الفئات التي تحصر الناس أو حتى كتابة تاريخ "ضد التيار" (كما كان ينصحنا دوماً "بنجامين") دون النظر إلى الأنطولوجيا التاريخية ودون فهم أدوات/آليات السلطة التي تتضح في التفاصيل. فلا يمكن فهم الاستعباد بدون الأنطولوجيا. وصف "جاستون بلاشار" أعماله – أو بالأحرى الهدف من إقدامه عليها – "بنظرية معرفة التفاصيل" وهذا الوصف يعد ملائماً جداً لما أقوم بعمله، فالكشف عن التفاصيل في أعمال السرد الخاصة بنا ليس الغرض منها "إثراء" كتاباتنا ولكن الهدف من هذه التفاصيل المعلنة والحاضرة أن نستطيع التعرف على الحياة اليومية في المستعمرات وكيف أن الغرض الدائم كان "الدفاع عن مجتمعاتهم" وفي نفس الوقت السماح بمزيد من الامتيازات والتمييز بسبب العرق.
"إتيان باليبار"[5] هو من دفعني للتفكير في أن الحدود الداخلية أهم وأكثر عنصرية من الحدود الخارجية وهي الأسهل سيطرة. فكما يجب حماية المجتمع من الانحلال والفساد يجب حمايته أيضاً من الأعداء...الخ. إن مفهوم الحدود الداخلية يحمل في طياته دلالات متناقضة وهذا ما أشرت إليه في كتابي "جسد الإمبراطورية"[6]. على المستوى الفردي الحدود الأخلاقية تكفي لأنها خارج حدود الدولة.

بولبينا: أنت تعملين في الدراسات الاستعمارية التي تعد مجالاً بحثياً. ويدهشك ألا تجدي كل عناصر هذا المجال حاضرة فعلياً. فإن حالة إسرائيل وفلسطين طبقاً لرؤيتك تبدو حتى الآن "خارج المجال البحثي" على الأقل أكاديمياً. فكيف ترين هذه الحالة؟

أن لورا ستولر: لماذا الوضع الاستعماري في فلسطين رغماً عن كونه وضعاً صارخاً منذ خمسين عاماً لم يتناوله الباحثون المتحدثون باللغة الانجليزية في مجال الدراسات الاستعمارية (الولايات المتحدة وانجلترا وأستراليا)، تلك الأماكن التي تجري فيها دراسات الاستعمارية منذ خمسة وعشرين عاماً؟ لماذا تم وضع الحالة الاستعمارية في فلسطين وإسرائيل بصفة دائمة تقريباً خارج المجال دون التعامل معها إلى درجة تم تجنب دراساتها؟ أنا لا أقصد أن أقول أن هذه الحالة لم يتم توصيفها أبداً قبل وخارج مجال الدراسات الاستعمارية لكننيأنبه بالأحرى إلى غيابها البارز بوضوح في هذا المجال.

بالنسبة للباحثين مثلي الذين انصب اهتمامهم بين التاريخ وعلم دراسة الأجناس والفلسفة، ها هي المهام الأساسية بالنسبة لنا: رؤية التحركات وتبادل الأفكار والممارسات، وكذلك الانتباه للمفاهيم التي تحول بين عمل المقارنات أو التي تحثنا على عملها (ولابد من التساؤل لماذا تلك وليس غيرها؟) وأخيراً دراسة المفاهيم التي تحجب عنا الرؤية وتجعل المشهد السياسي مظلم. يبدو لي أن هناك حقيقتين أوقفتا حركة الأفكار. أما الأولى فحقيقة انتزاع الأرض من الفلسطينيين وحرق مزارع الزيتون وعدم اعتبار منازلهم وقراهم التي دُمرت كما لو كانت لم تنتمي إلى التاريخ الاستعماري. وقد كنت أتحرى دوماً ما الذي يمنع التفكير ويمنع رؤية كثير من الحالات الاستعمارية بطريقة مختلفة "باعتبارها استثناء" أو حالات منعزلة لا تدخل في حيز الهيمنة الاستعمارية وهذا ما يخفي الدور الذي لعبته الولايات المتحدة في أعمال العنف الماضية والحاضرة.

الحركة الثانية (والمرتبطة بالأولى) تتعلق بمفهوم "المستعمرة" وعلاقته بالمعسكر. وهنا أتتبع آثار كلمة مستعمرة التي تظل كلمة بريئة بسيطة ولكن بوصفها مفهوما سياسيا فهو يجمع ويربط بين المستعمرات الزراعية الخاصة بالشباب أصحاب الجنح في فرنسا وهولندا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين (مثل مستعمرة "متراي" التي أنشأت عام 1839 وأغلقت عام 1939) والمستعمرات الجنائية (خاصة تلك التي أنشأت في الجزر تحت الهيمنة الاستعمارية الفرنسية والولايات المتحدة أو إيطاليا) والمستعمرات الزراعية في الجزائر (التي لم تشهد نجاحاً كبيراً) والتي تحولت في النهاية إلى معسكرات للجيش. تُظهر هذه الحالات شبكة من السلطة والآليات وحركة خاصة بالأفكار وكذلك تداول الممارسات والتي نفذت بشكل مختلف في الاستراتيجيات الإمبريالية[7].

نستطيع ملاحظة هذه الظاهرة بشكل واضح في الدراسات الاستعمارية التي كتبت منذ ثلاثين عاماً. ويمكننا القول حقاً أن أرشيفات الدراسات الاستعمارية تتسم مثلها مثل الأرشيفات الاستعمارية بالانتقائية والإشكالية. يمكننا تحديد بداية هذه الدراسات (وبالطبع ليس "الأصول") أو بداية انطلاق الصناعة الأكاديمية للدراسات التي انتشرت اليوم مع نشر كتاب إدوارد سعيد في عام 1978. فقد منحنا كتابه الشهير وعنوانه "الاستشراق" منحنا "الأدوات" لإعادة التفكير في معيار تأثير الأدب الغربي على الشرق وأظهر لنا "الشرق" على أنه صناعة ناتجة عن المعرفة والقوة الأوروبية.

ومنذ هذا المنفذ بدأنا في دراسة تشكيل القوة الغربية التي تضمنت وضع الخرائط وكتابة التاريخ ووضع علم الانتروبولوجيا. وكان الهدف الجديد هو ربط القوة الاستعمارية بكل هذه الإمكانيات المدعمة بالمعرفة العلمية و"الموضوعية". كنا فخورين ومتحمسين أن هذه الإمكانيات الجديدة متوفرة لدينا لعمل دراسات أكثر عمقاً عن السيطرة الاستعمارية ليس فقط على مستوى

استغلال الأيدي العاملة والاستيلاء على الأراضي ولكن أيضاً من حيث اعتبارها نظام اختراق على المستويين العلمي والثقافي. واستقرت دراستنا على الحالات الاستعمارية النموذجية ونُشر كتاب "الاستشراق" في نفس وقت ظهور "الدراسات المكملة" التي قام بنشرها مثقفين هنود من مدينة "كالكوتا" (أغلبهم من قدامى الماركسيين الباحثين عن وسيلة لكتابة تاريخ الطبقة الدنيا– بطريقة "إي. بي. تومبسون" أو "جرامي"إن صح التعبير– في قصص لم تنشر في كتابات النخب أو الانجليز أو حتى الطبقة البرجوازية المحلية). وأنتج هذا التلاقي مجموعة إجراءات ساهمت في أن تصبح الهند النموذج المثالي لدراسات الأساتذة الجامعيين في إنجلترا والولايات المتحدة وذلك بفضل الأرشيفات المكتوبة باللغة الانجليزية مما جعل منها "حالة" أسهل في التعامل.

وكان هذا غريباً بعض الشئ لأن "المعرفة الكامنة" عند إدوارد سعيد كانت تخص الشرق الأوسط وعلى الأخص فلسطين ومع ذلك فقد تم مسح فلسطين من خرائط الدراسات الاستعمارية كما لم تدرج في الدراسات المستقبلية لا مباشرة ولا حتى بعد عشر سنوات. ولكن الشيء الأكثر إثارة للانتباه كان قيام إدوارد سعيد بنشر كتابه "الاستشراق" عام 1978 وخلال هذه السنة وعندما كان الكتاب في مرحلة النشر لدى الناشر "فايكينج برس" كان سعيد قد بدأ لا بل شارف على الانتهاء من كتاب آخر كان من المفترض أن يكون أكثر أهمية للدراسات الاستعمارية ولكن لم يؤخذ به مرجعا أساسيا للمفاهيم لدينا أبداً وأعني هنا كتاب "المسألة الفلسطينية" الذي ظهر بعد سنة من نشر كتاب "الاستشراق".

بولبينا : لقد تحدث ادوارد سعيد في بعض الأحيان عن الطريقة التي يُنظر بها إليه إذ روى لنا مثلا عن مغامراته السيئة في النشر وسوء الفهم الذي قد تسببه الأحكام المسبقة، عاكسا بذلك المسلَّمات. أنت تقولين إن أعماله قُرئت قراءة عرجاء، فقد اعتُبر من جهة ذاك الجامعي المثقف والمختص بالأدب بشكل عام وبمؤلفات كونراد بشكل خاص، ووصف من جهة أخرى بأنه "الفلسطيني" وربما المتحيز عندما يعمل على القضايا السياسية.

أن لورا ستولر: بالنسبة لي هذا ليس من قبيل الصدفة أن تتناول الدراسات الأكاديمية شقا من أعماله وتهمل الشق الآخر. فكتاب "الاستشراق" ينظر إليه على أنه نتاج سعيد المفكر طبعا، فهو يستعرض فيه نقدا للغرب ويشرح فيه أيضا كيف أن الأنظمة (الحيادية على ما يزعمون) كانت إحدى القواعد الأساسية للمقاربات الأوروبية التوجه فيما يتعلق بالسياسة المعاصرة. فقد قدم الكتاب نوعا من الارتياح للباحثين على مختلف الأصعدة. أولاً كتاب "الاستشراق" كان ينظر إليه أنه كتاب تاريخ يتحدث عن ماضي يتوجب تصحيحه. ثانياً الكتاب يعتبر أيضاً حكاية وقصة تروي تاريخ لا صلة له تقريبا مع الولايات المتحدة ويرجع الفضل في ذلك إلى أن أمريكا الشمالية لم يكن لديها مستعمرات فعلية ولم تضع قواعد لدولة استعمارية. ثالثاً الكتاب يعتبر بمثابة انفتاح على جوانب السلطة الاستعمارية ليس على مستوى العنف المادي الممارس على الجسد والأرض فحسب بل يعتبر أيضا انفتاح على المعرفة الواسعة والسلوكيات العنصرية التي يتناولها الكتاب.

أما كتابه "المسألة الفلسطينية" فقد تم تناوله على نحو مختلف تماما. ففي هذا الكتاب نرى شخصية أخرى لسعيد، فهو ادوارد سعيد الشديد الالتزام سياسيا وأيضا ادوارد سعيد المهتم كثيرا بالعلاقات المعاصرة في إسرائيل وفي فلسطين وهو أيضا ادوارد سعيد المتحدث في الإذاعة والمضطلع بدور في الانفراجات السياسية.

إنه لمن المثير للدهشة أن نعيد قراءة "الاستشراق". وكما أشرت في كتاباتي في عام 2005، ربما لم يلحظ أحد أن سعيد لم يتطرق في كتابه "الاستشراق" سوى إلى مسألة تتعلق بالإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. بالمقابل أكد سعيد، حتى في هذا الكتاب، على دور القوة الأمريكية وعلى دور العلوم والقدرات الأكاديمية للولايات المتحدة الأمريكية في هذه اللعبة الاستعمارية للسلطة. كما أنه تكلم عن "الازدواجية الامبريالية" في كتابه المسألة الفلسطينية. تلك الازدواجية والسياسة التي تمحو الهوية الفلسطينية في فلسطين والتي تعامل الفلسطينيين "بطريقة مهمشة ودونية". فقد تكلم بإسهاب في هذا الكتاب تحديداً عن الصهيونية باعتبارها نفوذا استعماريا قويا "وممنهجا" خصوصاً في الاستيطان الصهيوني.

لذلك أنا أتساءل: ما هي تأثيرات هذا الانقطاع وهذا التفاوت في قبول كتاب ورفض كتاب آخر؟ هل بإمكاننا أن نتخيل منحى آخر للدراسات الاستعمارية فيما لو تناولنا هذين الكتابين على أنهما مشروعاً واحداً ومتكاملاً لا يتجزأ بدلاً من كونهما مشروعين مختلفين تماماً؟ بإمكاننا، وهذا ما أحاول شرحه أيضا في موضع آخر في كتابي الذي أنا بصدد إنهائه "Durabilities of (Dureess: concept–work for Colonial Histories (Duke, forthcoming)"، بإمكاننا أن نتصور مجالا للدراسات الاستعمارية لا يتناول فقط الهند على أنها أصدق وأفضل مثال للاستعمار. فالأماكن التي تعتبر هامشية بإمكانها على العكس أن تصبح في مركز نظام السلطة الاستعمارية حيث نجد فيها مراتب السلطة ودرجات الحقوق المختلة، ونجد فيها أيضا الصراعات المستمرة لترسيم الحدود بين الذي سيصبح مواطنا والذي سيصبح بدون دولة وبين الذي سيصبح موضوع القضية نفسها.

في سنة 1990 طرح "نيكولاس ديركس" المؤرخ في الشؤون الهندية فكرة أن الدراسات الاستعمارية أصبحت تتحول إلى وسط أكاديمي سلس جداً وسهل الخوض فيه. لكنني لا أتفق معه في هذا الرأي. فمن جهتي، أرى أن الدراسات الاستعمارية كانت رغما عنا (وربما حصلت إراديا) موضوعا داخليا معقدا ومحصوراً جداً. لو كنا هنا بصدد التحقق من حدث تاريخي ما، فلن نجده في كتاب "الاستشراق" بل على العكس سنجده في الشرخ والانفصال الموجودين بين ظاهرتين للمشروع نفسه، أي الشرخ بين الأماكن المعاصرة التي تثقل كاهلنا وبين التاريخ الاستعماري الذي تحول إلى حدث من الماضي. بل بوسعنا أيضاً أن نطرح سؤالا أكثر تعقيدا: هل يمكن القول أن الدراسات الاستعمارية قد تشكلت بواسطة المفاهيم التي يمكنها استبعاد (أو حتى التي تهدف إلى استبعاد) حالات السيطرة الاستعمارية التي تدخل الولايات المتحدة الأمريكية في هذا المجال الفكري؟

هناك شيء لافت للنظر في أرشيف جميع الإمبراطوريات وهو أن جميع هذه الإمبراطوريات اعتبرت نفسها ومازالت "حالات استثنائية". فجميع الحملات الاستعمارية تتكلم عن دورها الحضاري وذلك لأنها كانت أقوى من الإمبراطوريات الأخرى وأن أساليب حكمها هي الأكثر مرونة والأكثر عقلانية مقارنة بالعنف الذي تمارسه الأخريات. فكل إمبراطورية قد استمدت شرعيتها من مهمتها السامية في "الدفاع عن المجتمع" بواسطة العنف الاستعماري الممارس "فقط" بحجة الحفاظ على السلام والمستقبل.

وبإمكاننا أن نتصور خارطة استعمارية أخرى غير التي لدينا، خارطة بإمكانها الاستيلاء على أعماق ومجال التاريخ الاستعماري المترسب وغير الشرعي والشاذ الذي يشكل التاريخ الحديث. إن الأمر يتعلق بخطوة تطرح تساؤلات على ما اسميه "سياسة المقارنة"، حيث نسلط الضوء على المقارنات المقبولة بالإضافة إلى المقارنات الأخرى التي نعتبرها "غير نافذة" مثل التأثيرات السياسية. في هذه الخطوة يمكننا اعتبار حكومة الوصايات والانتدابات والجزر وما عليها من مواقع عسكرية في المحيط الهادئ ليس على أنها أجزاء معزولة وأقل أهمية من المناطق الاستعمارية المقسمة ولا باعتبارها أجزاء من إمبراطورية ضعيفة ولا حتى باعتبارها استثناءات من الاستعمار تتطلب إظهار "الاستعمارية الحقيقية" بل على اعتبارها مناطق أساسية تم فيها صقل التكنولوجيات ضد "المتمردين".

من هذا المنطلق بإمكاننا أن نرى أن "الحدث الاستعماري" الذي تناوله أغلب الباحثين في الدراسات الاستعمارية قد تجاهل العلاقات الوطيدة والدوائر المتينة للسلطات الاستعمارية بين بعضها البعض. وهذا ما ينصحنا به فوكو عندما يقول إنه يستحسن عدم البحث عن الحقيقة المخفية لإظهارها بل جعل ما هو بديهيا مرئياً وقريباً وأكثر وضوحاً.

بولبينا: من وجه نظري أرى أن عملك فلسفي بحت ويولي اهتماما كبيرا للمفاهيم (وهذا ما يشهد عليه كتاب معجم السياسة النقدية الذي ألفته). فكيف تتعاملين مع الفلسفة أو في إطار الفلسفة (وأشير هنا إلى نتاجات المفاهيم)؟ هل هذه المفاهيم هي أدوات نقدية أم عوامل استكشاف؟

آن لورا ستولر: نحن نعتقد غالبا بأن مهمة الباحثة التي لديها نظرة نقدية للتاريخ الاستعماري تكون (أو يجب أن تكون) واضحة وجلية، فهذه المهمة تشمل إظهار وكشف ما هو مخبأ في أرشيفات الدولة ومطمور على يد القوى الاستعمارية ومخفي في سياساتها وأجهزتها بالإضافة إلى كشف أساليبها في إدارة المستعمرات وحكمها. فنحن نعتقد غالبا أن هذه المهمة يمكن إثراؤها وجعلها ممكنة بفضل المفاهيم الفلسفية التي نستعيرها لأعمالنا التجريبية.

هذا صحيح وهو ما نفعله أصلا. فالإشارات إلى مفاهيم "فوكو" و"ديلوز" و"ديريدا" قد انتشرت في جميع الدراسات الاستعمارية. وهي موجودة أيضا في أعمالي. ولكني شيئا فشيئا أرى عملنا بطريقة أخرى باعتباره خطوة تؤدي إلى تحقيق شيء ما. إنني لا أرغب باستخدام واستعارة مفاهيم فلسفية كالتي تستخدم كأشياء جامدة الغرض منها بيان كيفية توضيحها للأحداث التجريبية أو حتى لبيان كيف أن هذه المفاهيم تتماشى مع المستويات التاريخية والعرقية. هذا الأمر لا يمنحنا (أو لا يترك لنا) سوى مشروعا واحدا للتحقق أو للرفض. كما أنني أفكر بدلا من ذلك بخطوة يترتب عليها تفعيل المفاهيم بطريقة أخرى لرؤية كيف أن هذه المفاهيم وخصوصا تلك التي نستلطفها والتي نستحضرها عادة لمساعدتنا (ولإضفاء بعض المصداقية على ما نقول) – كيف أنها تدفع وتضغط (وأحيانا تشوه) مهامنا التحليلية والسياسية إضافة إلى قدرتها على التقييد.

فيما يخص دراسات التاريخ الاستعماري المعاصر (وأريد أن أؤكد على كلمة المعاصر) أجد أنه من المهم جدا تتبع سياسات المعرفة التي يتم القيام بها بواسطة المفاهيم والتي نتناولها في كثير من الأحيان على أنها معطيات دون الحاجة إلى الاستفسار

عنها. والأسوأ من ذلك أن يتم التعامل معها على أنها "أدوات" من الممكن استبدالها كيفما نشاء، أدوات تعطي للطلاب نوعا من الدليل النظري يشرح "طريقة الاستعمال" (ومصطلح الأدوات هذا يستخدمه فوكو بشكل واضح فيصور كتاباته بـ"علبة أدوات"). من الأفضل الاستطراد بطريقة أخرى وأن نطرح سؤالاً آخر: كيف لهذه المفاهيم أن تعمل على أنها آليات بإمكانها إثارة تساؤلات جديدة أو على العكس تمنعنا من رؤية الطريقة التي تظهر وتختفي فيها السلطة الاستعمارية في حقب التاريخ الاستعماري وكيف لهذه المفاهيم اليوم أن تتخلل باستمرار في الدراسات الاستعمارية وما بعد الاستعمارية؟

أنا أفضل أن أولي اهتماما أكثر لعمل هذه المفاهيم على صعيدين. بداية على صعيد المفاهيم التي كانت هنا في العالم الاستعماري والتي كانت تتغير تبعا للتغيرات في استراتيجيات الإدارة الاستعمارية. فقد قمنا باستعارة هذه المفاهيم لإيجاد مفاهيم تحليلية من خلالها، الأمر الذي لم يكن موجودا من قبل. بعض هذه المفاهيم مستمرة بنشاطها داخل شبكة من مفاهيم أخرى تتماسك فيها الواحدة بالأخرى وبواسطتها تستمد فعاليتها. ومن ثم فأنا أعتقد أن أي عمل يتمحور حول المفاهيم التي أستخدمها أنا بصفتي باحثة لغرض تمييز الأوضاع الاستعمارية وتعريفها وتحديدها والزيادة في فهمها أي الأوضاع السياسية التي أدرسها في أبحاثي الخاصة والتي أحيانا أستخدم فيها هذه المفاهيم بسلاسة، فإنه عمل ضروري.

على كلا الصعيدين أرى انه يتوجب علينا أن نطرح سؤالاً مغايرا لسؤال "ما معنى هذا المفهوم؟ " أو سؤال "كيف نعرف هذه المفاهيم؟"، إذ يجب أن نتساءل عما تقوم به هذه المفاهيم وما الذي يحد من حركتها ومن فعاليتها وما الذي يمنعها من الذهاب إلى مكان آخر ولماذا لا تسمح لنا هذه المفاهيم إعادة التفكير فيها في حالات مماثلة ولكن بطريقة مختلفة.

من هذا المنطلق فأنا أحاول أن لا استعير هذه المفاهيم السياسية ولكنني أريد إعادة تفعيلها والنظر إليها باعتبارها روابط قوة تقوم بالعمل ويتوجب علينا تفعيلها. وذلك يعني التعامل معها بطريقة أفضل وإدراك وقتية هذه المفاهيم واستخداماتها المؤقتة. فبدلا من البحث عن جوهر المفهوم والبحث أيضا عن ماهيته، يبدو لي من الأهم أن نرّكز اهتمامنا على الاختلافات والتناقضات في استخدامها وعلى شبكات استعمالاتها والنقاشات والشكوك التي تدور حول هذه المفاهيم نفسها. كما يجب بالتحديد توجيه الأنظار إلى اللحظات التي تمكننا من تحديد الخرق في المعنى المشترك الناتج عن استخدامها. هنا يحضرني تعريف فوكو لحدث ما واصفا إياه بـ"الخرق لما هو واضح بذاته". لطرح هذه الأسئلة يتوجب التدبّر في المفاهيم السياسية بشكل آخر. فيجب النظر إلى هذه المفاهيم على أنها ذات تأثير علينا وأنها تستوقفنا على مشارف حدود الفكر وأنها تمنعنا (أحيانا دون إخطار وأحيانا مع إخطارات صريحة وجادة بل وحتى إخطارات مهددة) من الولوج إلى الجهة الأخرى والعبور إليها. هذه الحدود بالإمكان حراستها بالسلاح أو بطريقة أكثر إيذاءً أحيانا وبطريقة تبدو وكأنها أكثر سلاسة وأكثر براءة ورأفة مثل التي نراها عند هؤلاء الشابات الإسرائيليات ببشرتهن البرونزية واللاتي نجدهن واقفات أمام نقاط التفتيش يُعطِلن السير "بتحياتهن الصباحية" وابتساماتهن.

منذ فترة وأنا أسمع عن هذا العمل التحليلي باعتباره نوعا من دراسة السياسة المعرفية أو حتى ما يسمى "نظرية المعرفة السياسية" للتأكيد على أنه فور تكلمنا عن السلطة المرئية أو غير المرئية أو السلطة الملموسة أو غير الملموسة أو السلطة الهادئة أو العنيفة، فالمسألة تتعلق دوماً بالمعرفة والسلطة (نعم أفكار فوكو حاضرة في المشهد رغما عني). والأمر يتعلق بنظرية معرفية متداخلة مع جزء محدد من التاريخ وبطريقة معينة من المراقبة والتحكم بالكلمات والمفاهيم المرفوضة والمشلولة أو على العكس تلك التي تركناها تمرُ (وحتى تلك التي سمحنا بمرورها بهدوء) وبدون أي عائق.

بولينا :إن إجراء دراسات بحثية حول علم الإنسان التاريخي تعني بالتأكيد المراجعة والتنقيب في السجلات. فهي دراسة ميدانية ولكنها تعني الكتابة أيضا. نحن نشعر أنك بصفتك كاتبة فإنك تحبين الكلمات وتفضلين المفردات الدقيقة بدون أي شك أكثر من الكتّاب الآخرين، كما أنك تبحثين أيضا على ما يبدو لي عن عدم ترك خيط الكتابة منفلتا وتتحكمين بكتاباتك باستمرار. هل يمكن أن تخبريني كيف تخططين لعملك في الكتابة؟

آن لورا ستولر: تعجبني جدا فكرة أن بإمكان الألفاظ إعطاء تحليل دون اللجوء إلى اللغة الاصطلاحية. فبواسطة قوة الجُمل يمكننا تحديد مفهوم ما هو ليس مجرد لفظ بل هو أيضا فكرة و"كشف ما هو مستور" بحسب تعبير "بيير ماشيري". فلا يجب التلاعب بالألفاظ لأن الألفاظ هي التي تؤثر على الأشخاص وتحركهم. فأنا أفضل رنين هذه الألفاظ مع مراعاة الطريقة التي يتردد صداها بحسب مقتضى الحاجة. شيء ما ينظر إلي ولا أستطيع أن أحيد نظري عنه، إنه نداء بالنسبة إلي يقول: "إنه يعنيني أنا" وهو يمس قلبي قائلا: "لقد أثّرت على مشاعري وأفكاري"، هذا ما قالته لي قارئة ومستمعة شابة. وهذا ما أسعى إليه في كتاباتي. ولهذا فالقضية ليست مجرد مفاهيم.

فالكتابة بالنسبة إلي هي طريقة لإيجاد الأفكار. فأنا أفكر وألمس الحقيقة من خلال الكتابة. كما أن الكتابة تعني لي البحث بتعمق في هذه الأفكار واستبدالها والاستماع إليها أيضا. فأنا عندما أكتب، أكتبُ بصوت مرتفع ودائما بصوت مرتفع. هذا ليس أداءً. بل هو التوجه إلى التلقي في الاستماع وعدم التركيز فقط على ألفاظ علم الاجتماع. هذا الأمر ليس مسألة وصف عرقي. إنما هو رخصة لتبرير وجودها. وهذا الأمر نجده بوجه الخصوص على مستوى التفاصيل. فالتفاصيل التي لا تساهم في كتابة نص أكثر ثراءً. إنها المكان الذي نستطيع أن نطلق فيه حقاً العنان لتصوراتنا. وهذا ما نجده لدى "جيمس اجي"□□ إذ تجعله التفاصيل يستشعر الغبار بدلاً من الحديث عن البيض المساكين.

هنالك أيضا كتاب لـ"جورج ستينر"□□ عن شعر التَفَكّر يقول فيه أن الفلسفة خاضعة بشكل كبير للشعر. وأنا أوافقه تمامًا هذا الرأي. فصياغة المفاهيم مرتبطة بشدة بالشعر. فلا أعرف أبدا ما يمكنني أن أتوصل إلى رؤياه وهو عادة أبعد مما يمكنني أن أتصوره. فنحن نعتقد أحيانا أننا نبدأ بمجرد مجاز بسيط ولكن سرعان ما يفسح هذا المجاز البسيط الطريق لشيء ما مهم ومثمر جدا. إنما لا بد من الانتباه من عدم الافتتان بالمجاز وبالعوامل الشعرية.

الملاحظات

* لقد نُشر لـ"آن لورا ستولير" الكتب التالية أيضا: (*Race and The Education of Desire, Foucault's History of sexuality and Colonial order of Things*, Duke University Press, 1995) وكتاب (*Carnal Knowledge and Imperial power, Race and the Intimate in Colonial Rule*, University of California Press,2002) والذي ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان (*La Chair de l'empire, Savoirs intimes et pouvoirs raciaux en régime colonial*, La Découverte 2013) وكتاب (*Along the Archival Grain, Epistemic Anxieties and Colonial common Sense*, Princeton University Press, 2009)

1. Maurice Godelier (dir.), *Transitions et subordinations au capitalisme*, Paris, Ed. de la maison des sciences de l'homme, 1991
2. Ann Laura Stoler, « Racist Visions for the Twenty-First Century. On the banal Force of French Radical Right» in Jo-Ann Lee et John Sutton Lutz dir., *Situating "Race" and*
3. Immanuel Wallerstein, *The Modern World –System* : volume I *Capitalist Agriculture and the Origin of the European World- Economy In the Sixteenth Century*, New York, Londres, Academic Press, 1974 ; Volume 2 *Mercantilism and the Consolidation of the European World- Economy*, 1600-1750, New Yourk Academic Press 1980; Volume 3 *The Second Great Expansion of the Capitalist World-Economy*, 1730-1840's, San Diego, Academic Press, 1989, avec Etienne Balibar, *Race, Nation, Classe, Les identités ambiguës*, La Découverte, 1988.
4. Ann Laura Stoler, « Class Structure and Female autonomy in Rural Java », *Signs*, Volume 3, nº 1 *Women and National development : the Complexity of Change*, the University of Chicago Press, Automn 1977, p.74-89, version éléctronique http://www.jestor.org/stable/3173080
5. Etienne Balibar, «Fichte et la frontière intérieure, A propos des Discours à la notion allemande», *Les Cahiers de Fontenay*, juin 1990.
6. Ann Laura Stoler, *La Chair de l'empire*, chapitre 3 « Affronts sexuels et frontières raciales, La compétence culturelle et les dangers de métissage», p. 121.
7. Ann Laura Stoler «Colony » in *Political Concepts* : *A critical Lexicom*, vol 1, 2012, http://www.political concepts.org/issuel/colony/
8. Ann Laura Stoler «On Degrees of Imperial Sovereignty » , *Public Culture,* 18, 1, 2006, p.125-146.
9. Nicolas Dirkes, *The Hollow Crown* : *Ethnohistory of an Indian Kingdom*, Cambridge University Press, 1988; *Castes of Mind: Colonialism and the making of Modern India*, Princeton University Press, 2001; *The Scandal of Empire : India and the Creation of Imperial Britain*, Harvard University Press 2006.
10. Ann Laura Stoler «Tense and Tender Ties : The Political of Comparaison in North American History » in *Haunted by Empire*, Duke University Press, 2006.
11. هذه النقطة شرحها مارتن توماس في كتابه *Empire of Intellgence Security and Colonial Disorder after 1914*, University of California Press, 2008.
12. James Agee & Walker Evans, *Louons maintenant les grands hommes. Alabama* : trois familles de métayers en 1936, Paris, Plon, Collection «Terre Humaine», 1972 [1941] ;réédition 1993, augmentée d'une postface de Bruce Jackson.

13. Georges Steiner, *Apres Babel. Une poétique du dire et de la traduction*, Albin Michel, 1978 édition revue et corrigée en 1998.